محمد الفاتح والبطريركية اليونانية الأرثوذكسية

دكتور / محمد المهدى سيد صديق
أستاذ مساعد - قسم التاريخ
كلية آداب سوهاج

إستندت تركيا فى علاقاتها الدولية على مفاهيم ومعطيات ناجمة من الواقع ، والتصميم على شيوع المنفعة لدعم السلم والأمن ، وفى ذات الوقت لكى يسود التعاون كل المجالات المتعلقة من أجل رفع المعنويات وإنعاش الماديات فى ربوع أقطارها [١] .

وفى عام ١٤٥٣ فتح الأتراك اسطنبول ، وبقيت البطريركية فى الإمبراطورية العثمانية . ولكى نعرف مكانة البطريركية فى تلك الإمبراطورية ، فإنه من الضرورى التعرف على وضع الدولة التركية والبطريركية قبل عام ١٤٥٣ .

وكما نعرف ، فقد أسست الدولة العثمانية عام ١٢٩٩ ، وخلفت الإمبراطورية السلجوقية ، وتطورت ونمت بسرعة لتصبح إمبراطورية .

وهذه الدولة بسبب الموقع الذى نشأت فيه وخاصية مؤسسيها ، قدر لها أن تنجز رسالات كبرى ، فالدولة العثمانية الصغيرة لها فضل إلتقاء الشرق بالغرب ، أى العالم الإسلامى بالعالم المسيحى ، فقد أتاح لها هذا الموقع الجغرافى آفاقاً واسعة وآمالاً عريضة. فمن ناحية ، تأكد ضرر المقاطعات والبكوات الأتراك شرقاً ، ومن ناحية أخرى ، التعدى على الإمبراطورية البيزنطية غرباً ، ومن الممكن أن يقال أن هذا التوسع الزائد لا يحاكيه أى توسع طبيعى من جانب أى دولة ، لكنه يجب أن يكون بمثابة إنطلاقة من جانب إمبراطورية ذات ميل ونزعة عمومية .

وفى الحقيقة ، رغبت الدولة العثمانية أن تمثل ثلاث شموليات :- عمومية آسيا الوسطى ، وشمولية الإسلام ، والعالمية الرومانية . ونستطيع أن نقرر من وجهة النظر هذه فى دراسة الموضوع الذى نحن بصدده ، بأن محمد الفاتح كان ذا عزم أكيد فى توحيد هذه العوالم الثلاث فى شخصه [٢] .

---

(١) Cultura Turcica , volumen I . numerus 2. Ankara 1964 . p. 287 .

(٢) Ibid . p. 293 .

فبعد ظهيرة ٣٠ مايو دخل محمد الثانى المدينة – التى سوف تسمى منذ ذلك الحين فصاعداً باسمها التركى – اسطانبول . ويجتازها على متن جواد حتى كنيسة سانت صوفيا (أيا صوفيا) التى تؤدى فيها الصلاة ، وأسرع إلى إنهاء أعمال السلب وأعاد البهاء والازدهار إلى المدينة . فلجأ السلطان إلى كرم غير متوقع تجاه اليونانيين . فأعلن أن اليونانيين الذين أفلتوا من عمليات النهب يمكنهم العودة بحرية إلى ديارهم .

وكلّف لوكاس نوتاراس بمهام حكم المدينة ، وجرى تحديد وضع اليونانيين بشكل واضح وتم الحفاظ على كنائس عديدة .

وفيما يتعلق بالكنيسة اليونانية فقد حصلت على قانون وتنظيم دائمين [١] وبمبادرة من السلطان فإن جورج سكولاريوس ، الزعيم البالغ الشعبية للحزب المعادى لإتحاد الكنيستين، جرى تنصيبه لمنصب البطريرك تحت مسمى جيناديوس .

ولن تكون حياة جيناديوس وخلفائه حياة سهلة ، لكن الكنيسة احتفظت باستقلال روحى .

وسوف تدار الأمة (الملة) اليونانية وتمثل من جانب البطريرك وسوف تحل الخلافات بين اليونانيين عن طريق محاكم أرثوذكسية ، وأخيراً فإن الممارسة الحرة للعبادة سوف تكون مكفولة .

وصحيح أن هذا القانون يتمشى مع الوضع العادى للطوائف المسيحية فى البلدان الإسلامية ، لكن تأكيده على نطاق الدولة وتعزيز مكانة البطريركية ، فإنهما بهذا الشكل صارا يمثلان حدثاً هاماً وفريداً [٢] .

---

[١] روبير مانتران . تاريخ الدولة العثمانية جـ ١ ترجمة بشير السباعى . القاهرة ١٩٣٣ . ص ١٢٣ .

[٢] عبدالعزيز محمد الشناوى (د) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية . ١٩٨٤ . ص ص ٦٣ ، ٦٤ .

إذ من المعروف أن القسطنطينية ظلت عاصمة دينية وسياسية قروناً ، مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية – اليونانية – تهفو إليها قلوب الملايين من أتباع هذه الكنيسة . كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ أن أنشئت سنة ٣٣٠ على يد الأمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) .

فظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت في وجه المسلمين الأوائل وحالت دون امتداد الفتوح الإسلامية إلى شرقي أوربا حتى جاء التوسع العثماني يطرق بشدة ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية منذ مطلع القرن الرابع عشر .

واستولى العثمانيون على هذه العاصمة التي كانت يونانية الحضارة واللغة والتراث وأرثوذكسية المذهب الديني .

ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه أو اسم أحد من أسلافه على هذه المدينة على الرغم من أنه كان يملك القدرة على مثل هذا التغيير ، وقنع بنقل عاصمة دولته إليها .

وأصدر محمد الفاتح حين دخول القسطنطينية تعليماته بضرورة توقف الجنود عن السلب والنهب وضرورة عودة السلم إلى المدينة ، ثم زار في الحال كنيسة سانت صوفيا[1].

ثم دعا إلى إقام الصلاة فيها إيذاناً بتحويلها إلى مسجد للمسلمين وبعد أن أحرز إنتصاراته ، فقد أعلن أنه لن يعارض ممارسة المسيحيين لشرائعهم فقط ، بل سيمنحهم حرية العبادة والحفاظ على أموالهم ، وأما هؤلاء المسيحيون الذين هاجروا ، فعليهم العودة وأعطاهم السلطان نصف كنائسهم ، وتحول النصف الآخر إلى مساجد للمسلمين . وبعد أن اجتمع رؤساؤهم الدينيون لإنتخاب بطريرك لهم ، فقد انتخبوا جيناديوس سكولاريوس .

---

(1) Sésostris Sidarouss , les patriarcats dans l'Empire ottoman et specialement en Egypte . p. 267 .

ووافق السلطان على هذا الإختيار ، وأعلن أنه بطريرك للإغريق بنفس الوقار الذى كان عليه زمن الأباطرة اليونان ، وخصص له حرساً من الجنود الإنكشارية ، ومنحه سلطة الحكم والفصل فى الأمور والبت فى الأحكام . يساعده مجلس من كبار موظفى الكنيسة فى كل أمور المنازعات المدنية والقصاص والشئون الجنائية الخاصة بالإغريق ، وأنعم نفس السلطات للقساوسة فى الأقاليم . وفى مقابل تلك الإمتيازات ، فقد فرض على المسيحيين ، ضريبة الخراج والتى أعفى منها رؤساؤهم الدينيون .

ولنستمع إلى ماقاله مؤرخ أوربى فى هذا الموضوع فى لحظات الأهوال الأخيرة ، وعن تسامح محمد الفاتح الذى أظهره غداة الإنتصار ، بأنه لم يتجاوز حدود إنتصاره ، فقد أخرج من نصرانية آيا صوفيا البازيليك الملكى ، لأنه كان رمز وأمل وأبقى للمسيحيين أغلب كنائسهم [١] .

وعن إختيار محمد الفاتح لجيناديوس والطريقة التى تم بها إنتخابه ليكون بطريرك إسطانبول ، تنم عن حريات واسعة ، وصلاحيات كبرى منحت لهذا البطريرك ، تفوق كل أقرانه الذين سبقوه من البطاركة ، حتى أصبح محمد الفاتح مضرب الأمثال للحرية الدينية الممنوحة لغير المسلمين . إذ أنه عقب الفتح مباشرة إستدعى جيناديوس وهو رجل حكيم له مكانته ووجاهته لما يتمتع به من فضائل وشمائل . وتملك محمد الفاتح الشغف لرؤياه والإستماع لحكمته . وبعد إستقصاء مضنى ، وجده فى إحدى قرى أدرنه فى كنف أحد وجهائها يتمتع بتكريم عظيم . ولما رآه السلطان ، تبين له بعد فترة وجيزة ، دلائل حكمته ووقاره وطلاقة لسانه ، فتأثر به كثيراً ، وأظهر له كثيراً من مظاهر التبجيل والإحترام . وأعطاه حق المجئ إليه فى أى وقت يشاء ، وكرمه بالحرية والتحدث وتطرقا معاً إلى شتى الموضوعات المختلفة وأجزل له العطايا ومنحه الهدايا الثمينة . وفى النهاية عينه بطريركاً وقسيساً أعلى للمسيحيين . ومن بين عديد من الحقوق والمزايا ، منحه حكم الكنيسة وخوّله

---

(١) Ibid . p. 268 .

كل سلطاتها . كما منحه ميزة إلقاء مقالات أو بحوث أمامه بحرية – دون خوف أو وجل– تتعلق بالعقيدة المسيحية . وذهب بنفسه إلى مقر إقامته ومعه الأحبار وكبار رجالات الدين ومعه حكماء بلاطه وكرّمه [١] .

وبهذا الشكل كونت بطريركية الشرق الحديثة جماعة واقعية ، وهى ذات سلطة ورعية وقوانين أساسية وثروة . ولكى نفهم حقيقة الوضع ، علينا أن نتذكر النظرية الخاصة بالسلطتين الروحية والزمنية [٢] .

فكانت أولى الخطوات التى إتخذها " محمد الثانى " بعد الإستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية ، ومنع منعاً باتاً إضطهاد النصارى ، وصدرت الإرادة السنية بأن للبطريرك والأساقفة فى النظام الجديد جميع الحقوق والإمتيازات التى كانت لهم فى النظام السابق للفتح .

واستلم البطريرك من يد السلطان شارة ولايته ، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مطهم بعدة فاخرة ليركبه فى موكبه فى المدينة . ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الإمتيازات التى كانت له فى عهد الإمبراطور المسيحى فحسب ، بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين . فكان مجلس قضاء البطريركية ، هو الذى يفصل فى منازعات المسيحيين ويقضى بالغرامة والحبس والقتل . وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضى به مجلس البطريركية . فكان للبطريرك السلطة المطلقة فى الشئون الروحية، ولم تتدخل قط فى هذه الشئون السلطات المدنية الإسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية قبل الفتح ، ولما كان البطريرك معتبراً من كبار رجال الدولة فى نظر السلطان ، ومعترفاً به فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذى يقع من بعض الولاة على النصارى بإتصاله مباشرة بالسلطات ، وكان للأساقفة فى الولايات من الحرية والسلطة مثلما

---

(١) Kritovoulous . History of Mehmed the Conqueror , Princeton. 1954. pp. 93 - 94.

(٢) Sésostris Sidarouss Op. Cit. p. IX .

للبطريرك في العاصمة ، حتى انتهى بهم المطاف إلى أن صاروا فى مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها ، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التى انقرضت بسقوط دولتها [١] .

ومهما قيل عن مواقف محمد الفاتح المتعددة لتأمين روع المسيحيين ساعة النصر الكبرى ، فإننا لاتحصيها ، وهذا شئ ليس بغريب على مثل هذا السلطان الذى ترجل من على صهوة جواده حين وصل موكب نصره إلى باب كنيسة آيا صوفيا ، وانحنى أمام بابها، ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً ودخل الكنيسة فبهره جمالها وبهاؤها ودخل إلى المذبح حيث قابله رجال الكنيسة وكانوا مختبئين فأحسن إستقبالهم وأكد لهم حمايتهم . وطلب من المسيحيين الفزعين الموجودين فى الكنيسة الذهاب إلى أماكنهم آمنين [٢] .

وكان السلطان الفاتح يعلم أن الروم قوم شديدو التمسك بدينهم ، فرأى أن خير ما يجمع شملهم ويشجعهم على العودة والإطمئنان إلى حكمه هو أن يظهر العناية بالناحية الدينية . وكانت البطريركية إذ ذاك شاغرة فعمل على تنصيب بطريرك رومى جديد بنفس المراسيم الفخمة التى كانت تتبع فى عهد الأباطرة الأول ، واجتمع الأساقفة وانتخبوا جناديوس بطريركاً لهم . وقد كان من أقوى المعارضين لإتحاد الكنيستين وأشدهم عداء له.

وبعد إنتخابه ذهب فى موكب حافل من الأساقفة إلى القصر الذى كان فيه الفاتح ، فاحتفى بهم أعظم إحتفاء وبالغ فى تكريمه والترحيب به وتناول معه الطعام على مائدته وتحادث معه حديثاً طويلاً ثم قدم إليه عصا البطريركية. وقال إنك البطريرك وليحفظك الله

---

[١] محمود ثابت الشاذلى . المسألة الشرقية : دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩ – ١٩٢٣) ط١ القاهرة . ١٩٨٩ . ص ص ١٠٨ – ١٠٩ .

[٢] محمد مصطفى صفوت (د) السلطان محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية . دار الفكر العربى . ١٩٤٨ ص ص ١٠٩ – ١١٠ .

واعتمد دائماً على صداقتى ومودتى وتمتع بكل ماكان يتمتع بـه سلفك مـن الحقـوق والإمتيازات . ولما همَّ البطريـرك بـالإنصراف نهض لـه الفـاتح ورافقـه إلـى بـاب القصـر وأعانه على ركوب الجواد المطهم الـذى أعده لـه ، وأمـر وزراءه وكبـار رجـال دولتـه أن يصحبوه إلى مقره الذى هيئ له (١) .

وقد تأثر البطريرك لما لقيه مـن السلطان محمد الفـاتح مـن بـالغ الحفـاوة والتجلـه ، وشعر بشئ من الخجل فقال للسلطان : إن الأباطرة النصارى لم يفعلـوا قط مثـل هـذا لمـن سبقه من البطاركة .

ولم يكن الروم انفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم ، فقد كـانوا يحسبونه فاتحـاً بربرياً سفاكاً غادراً لايرعى للدين حرمة ولايفهم للإنسانية والتسامح معنى . ولكنهم وجـدوا فيه من السماحة والدماثة والأريحيـة مـالم يـروا مثلهـا مـن قبـل ، فلـم يسـعهم إلا أن رفعـوا أيديهم إلى السماء يسألون الله أن يبارك لهم فى هذا السلطان الجديد .

وأصدر الفاتح بعد ذلك فرماناً للبطريـرك أمنـه فيـه علـى شخصـه وجعلـه فـى رتبـة الوزراء وعهد إليه بالنظر فى أمور الروم من الناحيتين الدينية والمدنيـة كـالزواج والطـلاق والميراث وأصبح البطريرك بذلك زعيماً دينياً وسياسياً لشعبه (٢) .

وبـالمثل كـان للأرمـن ثـلاث بطاركـة فـى كـل مـن القسـطنطينية والقيسـارية Césarée وبيت المقدس ومنحهم حق الفصل فـى شئونهم المدنية وإنزال القصـاص فـى جرائمهم وجنحهم (٣) .

---

(١) سالم الرشيدى محمد الفاتح ط١ القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٩٣ .

(٢) نفسه ص ٩٤ .

(٣) Sésostris Sidarouss . Op. Cit . p. 269 .

ومن الجدير بالذكر ، أنه بعد سقوط القسطنطينية فى يد محمد الثانى لم يرغب الباب العالى على الإطلاق الإعتراف بالوجود القانونى للجماعات الكاثوليكية فى الإمبراطورية . وأرغم هؤلاء الرعايا الكاثوليك على إتباع إما البطريركية اليونانية الأرثوذكسية أو البطريركية الأرمنية الأرثوذكسية ومن ثم ضغط اليونان الكاثوليك على البابا بى الثانى Pie II أن يسمح لهم باتباع نظام المحاكم اليونانية الإكليركية (الكنيسة) الذى يعترف به الباب العالى .

ويذكر اليونان الكاثوليك بأن السلطان لايكن لهم نفس العداء الذى يظهره تجاه اللاتين الكاثوليك ، أعداءه الطبيعيين منذ الحروب الصليبية . إذ لم يتوقفوا عن مهاجمة الإسلام لصالح البابوية . وفهم البابا بى الثانى Pie II الموقف تماماً بأنه أمام أحد خيارين إما أن يتوجه الكاثوليك بخلافاتهم أمام المحاكم الأرثوذكسية أو أن يؤسس جمعيات كاثوليكية وفضل الحل الأخير مع أنه جرّ عليه التخلى عن أساقفة الأبرشيات ، على أن يخاطر بإخضاع الكاثوليك للولاة الأرثوذكس . لكن مع مطلع القرن التاسع عشر ، وبفضل تدخل فرنسا شهدت بطريركية المشرق الكاثوليكى الإعتراف رسمياً بشخصها المعنوى بواسطة الباب العالى [١] .

لقد تناغم التقليد التركى مع مبادئ الإسلام ، من بينها الإعتراف بحقوق الإنسان للشعوب المقهورة ، فاستطاعت عشرات الأمم الحفاظ على أديانها ولغاتها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها على مدى قرون .

وقدم الأتراك حقوق الإنسان التى شملت حرية الدين للأقطار التى فتحوها فى عهود كانت أوربا لاتتخيل ذلك .

(١) Ibid . p. VIII .

وكان الكرسى البطريركى ، شاغراً حينما فتح محمد الثانى القسطنطينية . وفى مواجهة الخطر التركى ، كان آخر إمبراطور بيزنطى ، هو قسطنطين باليولوجس ، قد وافق على إتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، في مقابل المساعدة البابوية ، وكان الشعب غير راض عن هذا الإجراء اليائس .

وكان البطريرك جريجورى الثالث آنذاك ، وقلة بسيطة كهنوتية مناصرة لهذا الإتحاد ، إلا أن شعب العاصمة استمر فى معارضته لذلك الإتحاد ، بعد أن أعلن رسمياً باحتفال فى سانت صوفيا فى ديسمبر ١٤٥٢ .

وكان وجود كاردينال كييف كمبعوث بابوى فى إحتفال سانت صوفيا ، قد زاد من التوتر إذ أحيي في الذاكرة ماعانته بيزنطة من مذلة نتيجة للغزو اللاتينى منذ قرون من قبل وقد عبّر الدوق لوكاس نورتاراس Duke Lucas Notaras عن مشاعر مواطنيه حينما أعلن "من الأفضل مشاهدة عمامة الأتراك فى القسطنطينية ، على قبعة الكاردينال الرومانى" ولقد تكونت فى كنيسة بيزنطية ذاتها جماعة مناهضة للإتحاد وكان على رأسهاجورج سكولاريوس الذى عمل كسكرتير للإمبراطور جون السابع إخو قنسطنطين باليولوجس وسلفه .

وكانت المعارضة ضد الإتحاد عامة وقوية ، وحاول الإمبراطور يائساً فرضها بالقوة ، لدرجة أنه كان طبيعياً خلع البطريرك وخلفه لتوه وساعته ، قبيل الحصار النهائى بواسطة جيوش محمد الفاتح . ومن ثم كان شغر كرسى البطريركية حين قدوم الأتراك كان إحياء الكنيسة النيزنطية حدثاً أكثر مجداً من الإستيلاء على بيزنطة ، فلم يكد محمد الفاتح يحرز إنتصاره حتى أعلن نفسه راعياً لرعاياه الجدد ، وطلب منهم أن ينتخبوا بطريركياً لأنفسهم .

ونديم الملك والمؤرخ فرانتيزس ، يعطينا الوصف التالى عن تنصيب البطريرك اليونانى بواسطة السلطان التركى "فى اليوم الثالث بعد قصف المدينة ، إحتفل الأمير إحتفالاً

هائلاً بنصره ، وأعلن أن الجميع ، صغاراً وكباراً ، الذين إختبأوا فى أى مكان فى المدينة، ينبغى عليهم العودة ويعيشون فى حرية وأمان . وأن الذين هربوا من المدينة ، خشية الحصار ، ينبغى عليهم العودة ، وكل رجل فى مهنته ووظيفته ودينه كما كان عليه الحال من قبل .

والأكثر من ذلك ينبغى أن يكون لهم بطريركاً وفقاً لعاداتهم لأن البطريركية شاغرة. ثم إن الأساقفة الذين تصادف وجودهم فى المدينة ، وفئة بسيطة من رجال الدين من طوائف وعلمانيين انتخبوا البطريرك جورج سكولاريوس وهو أعلمهم - وكان حتى ذلك الوقت علمانياً - تحت مسمى جديد "جيناديوس" .

وكان هناك تقليد ثابت منذ عهد الأباطرة المسيحيين ، هو منح البطريرك المنتخب الجديد ، عصا الأسقفية من الذهب ومزينة بالأحجار الكريمة واللآلئ وحصاناً مطهماً بالزينة ، بالحرير الأبيض والذهب .

وعاد البطريرك إلى مضجعه يصحبه علية القوم وسط الصياح والتصفيق والتحية . وكان السلطان يرغب أن يكون سيد العاصمة . وكان التقليد السائد لدى الأمراء والحكام المسيحيين هو استدعاء البطريرك للجلوس إلى الطعام والحديث معه وحينما وصل البطريرك وحياه السلطان بترحاب كبير . فقد كان هناك مؤتمر مطول ، ومن خلاله لم يتوقف السلطان فى وعوده اللانهائية للبطريرك .

وحينما حانت ساعة رحيل البطريرك ، وأذن له السلطان بالراحة ، قدّم له عصا قيمة ورجاه أن يقبلها ورافق البطريرك إلى الفناء ، بالرغم من معارضته لذلك وساعده على إمتطاء الجواد الذى أعده له .

وأعطى الأوامر لكل كبراء القصر أن يصحبوا البطريرك إلى كنيسة الرسل ، فتقدم بعضهم ركب البطريرك ، وكان خلفه البعض الآخر . ونود أن نشير بأن السلطان خصص تخوم الكنيسة (أى كنيسة الرسل) مقر إقامته (١) .

وكان عرش محمد يحرسه عدد من رعاياه المسلمين ، لكن سياسته الحكيمة رغبت أن تجمع بقايا اليونانيين ، فهاجروا أفواجاً حينما تأكدت لهم حياتهم وحرياتهم وإقامة شعائر دينهم بحرية .

ففى إنتخابهم وتعيينهم البطريرك ، فقد أحييت وقلدت إحتفالات البلاط البيزنطى . وكان محمد الفاتح مجرد تابع لنموذج سلفه ، حينما ضمن أرواح وممتلكات شعب بيزنطة ، ومنحهم حقوق الإنسان كاملة . ولم يكن كرمه وليد اللحظة ، فحينما فعل محمد الفاتح ذلك ، كان وفاءًا وإنجازاً لتقليد راسخ طويل والذى سيستمر معمولاً به على مدى القرون التالية .

ولم يكن هذا الشاب المؤسس للإمبراطورية التركية العثمانية ليكرر إجراء بيزنطياً ذاتياً ، حينما قام بتنصيب البطريرك الأرثوذكسى الجديد وفقاً للتقاليد والعادات البيزنطية ، فعمله هذا لم يكن إجراءًا أوتوماتيكياً ، إذ كانت حركة تمت بوعى . فقد أدرك السلطان بحسه المرهف ، بأن الإبقاء على البطريركية فى شكلها القديم ، لم يكن عملاً مرضياً تماماً، كما أدرك أيضاً أن ما قام به سلفه من السلاطين الأتراك لم يكن كافياً كذلك .

وفى الحقيقة فقد رغب الفاتح ، أن يكون رعاياه الجدد ملة الروم (الجماعة الرومانية) فى عهده ، يجب أن تكون مستقلة بذاتها من الناحية الروحية ، وفى معظم شئونهاالإدارية والقضائية .

---

(١) Robert Lidell . Byzantium And Istanbul, London . 1966. p. 122.

وهناك من المؤرخين من يرى بأن الفاتح إلى حد ما ، كان بتعيينه البطريرك الأرثوذكس (الجديد) إتبع ما سلكه سلفه الذين إعترفوا بالأساقفة الأرثوذكس الذين يعينهم البطاركة فى مناطقهم الآسيوية كرؤساء مدنيين ودينيين [١] .

ولذلك فقد إتخذ إجراءاً أكثر مما قام به الأباطرة البيزنطيون ، فأعلن أن جيناديوس الثانى ، اثنارخ لملة الروم

Ethnarch of the millet - i - Rûm .

فالنظام التركى الإدارى فى عهد السلاطين لم يكن صارماً متشدداً ، بل كان على العكس مرناً ومطابقاً وموافقاً للمستجدات الناشئة عن الظروف الجديدة .

وأدرك الفاتح أن الإستقلال الدينى وكذلك الإدارى والمدنى لرعاياه الجدد ، من الممكن تأمينه بزيادة سلطة وامتيازات البطريرك ولذلك ابتكر منصب اثنارخ أى المسئول عن شئون الروم "the title of ethnarhy" ومنحه لجيناديوس الثانى ومنحه أيضاً البراءة الإمبراطورية وكما منحه أيضاً لقب بكلربك لإسباغ الهيبة والوقار وأعلن أن جيناديوس اثنارخ أى رئيس لطائفته مدنياً وروحياً .

وبهذه الصفة لم يكن مجرد رئيس دينى ، وإنما كان أيضاً المتحدث عن جماعته أمام العرش الإمبراطورى .

وقبل إستحداث البراءة فى النظام العثمانى ، فإن الأساقفة لم يستطيعوا مزاولة الوظائف الإدارية ولم يستطيعوا كذلك رعاية ممتلكات أسقفياتهم . والآن وبعد أن تقلد جيناديوس البراءة الإمبريالية ، فإنه يستطيع أن يقوم بذلك ويتمتع أيضاً بكل الإمتيازات كعضو فى الترتيب الهرمى العثمانى .

---

(١) Harry Luke . The Old Turkey And the New . London . 1955 . pp. 76 - 77 .

وكانت محصلة سياسة النظام العثمانى تجاه غير المسلمين من المسيحيين ، ما ذكره السير هارى لوك :

لقد شهد كتاب معاصرون من أجناس مختلفة ، ، أنه أثناء عظمة وأوج الإمبراطورية العثمانية "كانت ممالك السلطان تدار بطريقة أحسن ، وإنتاجها إقتصادياً أفضل بكثير من عديد من المناطق فى أوربا المسيحية . لدرجة أن أغلب الرعية من الفلاحين ، كانوا يتمتعون بحرية شخصية أكبر ، وحصلوا على قدر أوسع ، من ثمار كدهم فى ظل السلاطين ، كل ذلك جعلهم أفضل بكثير من معاصريهم وأقرانهم فى ظل حكام مسيحيين عديدين " [١] .

لقد اتبع النظام الملى فى الحكم ، ففى ظله ، وضع شعب كل طائفة دينية تحت رئاسة زعيمها الدينى ، وقد منح درجة كبيرة من الحكم الذاتى : فالتسامح الدينى وذاتية الحكم ، كانت علامات الحكم العثمانى . ولقد تطور تطوراً عالياً حينما كانت الدولة فى أوجها [٢] . ولازال العديد فى تركيا الحديثة يعتقد أنه بسبب تستر الدول المسيحية الغربية للرعايا المسيحيين العثمانيين ، فقد أسهم التسامح الدينى إلى إنهيار الدولة العثمانية [٣] .

وكانت الأجهزة التابعة للبطريركية تقوم بتسجيل المواليد والوفيات والزواج والوصايا والأحوال الشخصية عن طريق محاكمهم الخاصة ... الخ وكاد بطريرك إسطانبول فى أوج الدولة العثمانية أن يصل إلى سلطة ونفوذ عالمى ، لم يحلم به فى أى وقت مضى فى ظل الدولة البيزنطية [٤] .

---

(١) Harry Luke (Sir) . The Old Turkey And the New . Op. Cit. p. 90 .

(٢) Cultura Turcica .Volumen II 1965 . numerus I . Ankara . p. 34.

(٣) Chester M. Tobin , Turkey Key To The East . New York . pp. 25 - 26 .

(٤) Arnold J. Toynbee and Kenneth Kirk wood . Turkey . London . 1926. pp. 28,29 . HarryLuke . The Old Turkey And The New . Op. Cit. pp. 98-102 .

لقد أرسى محمد الفاتح دعائم البطريركية الأرثوذكسية ، على أساس من الحرية الدينية بعدئذ لدرجة أن أية محاولة للنكوث بالعهد تبوء بالفشل ، وللتدليل على صدق هذه المقولة ، نتعرض لما حاوله سليم الأول فى هذا الشأن . من المعلوم أن القسطنطينية خضعت لمحمد الفاتح بشروط متفق عليها ، منها أن اليونانيين كانوا ملاكاً لكنائسهم فى الجزء الخاص بهم من المدينة فى عهد ثلاثة سلاطين : بايزيد الثانى ومحمد الثانى وحقبة من عهد سليم الأول .

وقد حفظت مراسم هذه الكنائس أثناء هذه العهود فى سجلات الكنيسة البطريركية وقد حاول سليم الأول التخلص من ذلك الإلتزام .

فقد روى على أفندى وهو من أهل فيليبولس وسكرتير الخزينة فى عهد هذا السلطان كان سليم الأول فى وقت ما شغوفاً بنشر الإسلام ، فأرسل إلى المفتى ، وحادثه حديثاً وديا فى موضوعات مختلفة ، وناقشه عن أعظم إنجاز ينال به رضا الله . ثم تحدث عن نيته فى إخضاع العالم كله للإمبراطورية العثمانية . وعن رغبته فى إلزام أتباع المسيح وموسى بدفع الجزية له لملء خزينة بيت المال . وإخضاع كل الأمم للإسلام [1] . فأفتاه المفتى الذى لم يفهم مقصده ، أن إزهاق روح المسيحى أو اليهودى من أجل العقيدة الصحيحة ، عند الله خير من كنوز الدنيا . ولما إقتنع السلطان بوجهة نظره تلك ، فأرسل للصدر الأعظم بعد أيام قلائل ، وأمر بتحويل كل كنائس المسيحيين إلى جوامع لمنعهم من ممارسة دينهم وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام ومن لم يطع الأمر الإمبراطورى، يعرض نفسه للإعدام. ولم يعرف الصدر الأعظم الذى صعقته هذه البدعة كيف ينصاع لهذا الأمر ، لأنه مخالف ليس لشريعة الإسلام فحسب بل ضد مصالح الإمبراطورية ذاتها .

وعندما وصل إلى مسامع الصدر الأعظم أن المفتى هو الذى أوعز إلى السلطان بتلك الفتوى ، غادر البلاط فى الحال وذهب إلى المفتى وعنفه بشدة لهذه المشورة .

---

(1) Steven, Runciman. The Great Church in Captivity. Cambridge. 1968. pp. 189-190.

واعترف المفتى بخطئه لشدة حرصه على إرضاء الإمبراطور، ووعد بإصلاح خطئه ، وعودة السلطان إلى صوابه ورشده . ثم تشاورا سوياً ، فأرسلا شخصاً يدعى كيماكان Caimacan إلى البطريرك اليونانى ، مقدمين إليه الإجابة تجاه المرسوم الإمبراطورى الذى يقضى بتحويل كل الكنائس إلى جوامع . وتحويل كل سكان القسطنطينية على غير دين الإسلام باتباعه ، واستلم إستدعاء البطريرك وكل رجال الدين إلى القصر وتلى عليهم تعليماته . ورد البطريرك – الذى أعلم من الصدر الأعظم والمفتى – أنه سيناقش الأمر مع الإمبراطور ، ويعرض قضيته على المفتى وآخرين من فقهاء الشريعة . فإذا جاء الحكم وفقاً لأحكام القرآن ، فإنه سينصاع له فى الحال ويلتزم به ، وإذا أنكر عليه هذا الحق ، فإنه سيتحمل كل أوزار نفسه وشعبه بأجمعه (١) .

وأرسل كيماكان رد البطريرك إلى الصدر الأعظم فى خطاب مغلق ومعه إلتماس متواضع من المسيحيين ، وسلمت هذه الرسائل وتليت . وذهب المفتى مع الصدر الأعظم إلى السلطان وأخبراه بأن البطريرك رفض الإذعان لأوامره وبررا عصيانه إذ طلب البطريرك ضرورة نظر الإدعاء والتقاضى بينه وبين السلطان . وأضاف المفتى بأنه من الواجب الإستماع إلى شكاياتهم والتعطف عليهم بالإجابة . وأدرك السلطان أنه لايستطيع فعل أى شئ قسراً .

وأمر البطريرك وسكان العاصمة وبعض كبار الأعيان أن يحضروا إليه فى أدرنه ، ولما إمتثلوا لأوامره فى الديوان ، إشتكوا بأن المرسوم السلطانى لايسبب الضرر لأنفسهم فقط ، ولكنه ينتهك بشدة الميثاق الذى عقده أسلافه . وتم القسم عليه (٢) .

---

(١) Dimitrie , Cantemir , Extracts from the History of The Ottoman Empire . Bucharest. 1973. p. 117.

(٢) Ibid . p. 118.

ولقد سأل الدفتردار الذى كان يحضر قضية السلطان عن منطوق هذا العهد ، فأجاب البطريرك ، ليكن معلوماً لسيادتكم أن أسلافنا سلموا بإختيارهم نصف القسطنطينية لمحمد الفاتح بشرط :

١- عدم تحويل الكنائس إلى جوامع .

٢- إحترام الزواج والجنازات والطقوس المسيحية كالمعتاد ودون مضايقات .

٣- المحافظة على عيد الفصح أو القيامة (العيد الكبير) بكل حرية ولهذا تركت بوابة الفنار Gate Phanar ثلاثة أيام لمقدم المسيحيين من الضواحى للتعبد ليلاً بالكنيسة البطريركية وذكر أنه بموجب هذه الشروط ، قاموا بتسليم المدينة لفخامة جدكم ، مع تقديم المفاتيح فى علبة ذهبية ، وبمنطوقة لكلمة ، تأكدت ملكيتنا لكنائسنا منذ ذلك اليوم ، وحمى ديننا إثنان من أسلافكم .

والآن حقوقنا تسلب منا ، وبخصوص الموضوعات الأخرى التى يأمرنا بها مرسوم فخامتكم ، ومنها ترك مسيحيتنا واعتناق الإسلام ، فإننى أقول إن هذا يتنافى مع شريعة الإسلام التى تذكر : أن أى شخص منذ رجولته إلى السبعين ، فإنه يدفع سنوياً ثلاثين درهماً من الفضة الخالصة باسم الجزية .

وأكد المفتى ما ذكره البطريرك . فى حين نفى ما ذكر بخصوص تسليم القسطنطينية فقال (أنه ليس بحقيقى أو حتى محتمل) . وسأل المفتى البطريرك عما إذا كان يستطيع إحضار وثيقة العهد (الميثاق) فأجاب أنها أحرقت فى حريق . ولكن لديه ثلاث شهود من الإنكشارية أنفسهم الذين كان الفاتح يعتمد عليهم للتثبت فيما قدمه : وكان كل واحد من هؤلاء الإنكشارية يبلغ عمره مائة عام ، وأحضروا أمام المفتى وشهدوا أنه أثناء الإستيلاء على القسطنطينية ، شاهدوا بأعينهم أعيان اليونان ، جاءوا من خارج المدينة ، وقدموا للسلطان وهو فى خيمة دون جدران ، المفاتيح فى علب ذهبية وحصلوا على الميثاق

المذكور ويحتوى على الثلاث أشرط السابقة (١) . وهنا إعترض السلطان دون مقاومة ، يقول أن هذه الشروط التى منحها جدنا للمسيحيين ، بالرغم أنه لاالعدل ولاالقانون يسمح بأن تتحول هذه المبانى الجميلة المقدر لها العبادة الإلهية تتحول إلى بيوت للأوثان ، فنحن لانقر هذه الشروط ، وحيث أن الشريعة الإسلامية ، تبيح للمسيحيين بالإعلام العام عن دينهم ، إلا أننا نرغب بأن كل الكنائس المبنية بالحجارة والتى يمتلكها المسيحيون ، تتحول إلى جوامع ، على أن يسمح لهم ببناء كنائس خشبية بدلاً منها ، أو إصلاح ماتهالك منها مع مرور الزمن (٢) .

ولانعنى بذلك أن الدولة العثمانية نقضت سياسة التسامح الدينى فى إطارها العام . ولنضرب مثلاً على ذلك أن الأرثوذكس – عندما نزلت القوات التركية بقبرص لإحتلالها – أعلنوا أنها جاءت من قبل السلطان التركى للإنقاذ .

ولقد قصّ فرا أنجلو كالبيو **Fra Angelo Calepio** رئيس الدومنيكان فى قبرص – الذى سجنه الأتراك بعد الاستيلاء على نيقوسيا – قصّ بأن قبرصيا – هو الذى أنزل علم سان مارك St. Mark من أعلى سراى الملك ، ورفع بدلاً منه العلم العثمانى (٣) .

والسلطان سليم الثانى – الراعى للتقاليد التركية والاسلامية – منح الحقوق الإنسانية الكاملة للشعب القبرصى ، فبالإضافة إلى الجالية اليونانية الأرثوذكسية ، فقد شملت أيضاً

---

(١) Ibid . p. 119 .

(٢) Ibid . pp. 120 - 121 .

(٣) Harry Luke, (Sir). A Portrait and Appreciation. Cyprus.London.1957. pp. 44,45 .

الجاليات الصغيرة والموارنة والأرمن والأقباط واليعاقبة * .

وألغى الرق ، وأرجع الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية إلى سالف عهدها الزاهر وأرسل السلطان الفرمانات الواحدة تلو الأخرى إلى البكلربك والقاضى والدفتردار فى قبرص ، بمعاملة الرعية بالعدل والرحمة .

وفى إثنين من هذه الأوامر المؤرخة ٦ ، ٧ مايو ١٥٧٢ على التوالى "حرَّم السلطان ممارسة الظلم والإستبداد على الرعية الذين كانوا فى ظل ظروف مستضعفة . ويذكر الدكريتو المؤرخ فى ٧ مايو ١٥٧٢ أن الرعية كانت تعانى الكثير ويجب أن تعامل بالعدل، ويجب أن تزدهر الولاية كما كانت قديماً ، ويجب ألا يسمح بأى ظلم أو استبداد .

وكانت رغبة السلطان الكبرى أن يتسم عصره بالحكم العادل والرفاهية وأن يتعيش كل إنسان ويستمتع بممتلكاته فى يسر وأمان . وأن تسترجع جزيرة قبرص ظروفها القديمة من زراعة طيبة وازدهار . ولذا فضل اليونانيون العهد العثمانى على اللاتين إذ تخلصوا من استبدادهم ، منذ رحبوا بالقوات التركية كمحررين .

فقد أنعم الأتراك على السكان الأرثوذكس بنعمتين ، فقد ألغوا الرق والتى كان يئن فى ظلها الفلاحون طيلة العهد البيزنطى . وأرجعوا الكنيسة الأرثوذكسية ، إذ كانت الكنيسة المسيحية مغلقة ثلاثة قرون [1] .

---

* كونت البطريركيات الشرقية الأربع بإتحادها مع كنيسة قبرص ، نواة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية المقدسة فى عهد السلطان التركى .

واستقلت كنيسة روسيا – وهى أصلاً كانت تابعة لإسطنبول – عام ١٥٨٩ فى عهد بطريرك موسكو .

Cultura Turcica . volumen II . numerus . I . Ankara . 1965. p. 35 .

(١) Ibid . p. 38 .

ومع مرور الزمن منح السلطان أسقف قبرص براءة إثنارخ Ethnarch أى ممثلاً عن جاليته فى علاقاته مع حكومة الدولة العثمانية ، كما أنه بحصوله على هذا اللقب أصبح كذلك عضواً فى سلم الحكم العثمانى .

وفى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد حصل على نفوذ قوى على الجزيرة لدرجة أنه فى وقت من الأوقات أحرز سلطاناً فاق الحاكم التركى . ففى عام ١٧٨٤ ، حينما نشب نزاع بين الحاكم والقساوسة بشأن التجارة التى يقوم بها القساوسة ، سافر الأسقف ومعاونوه فى الحال إلى القسطنطينية للبحث عن مساعدة ، وفى النهاية إستدعى الحاكم التركى [1] .

كانت الدولة العثمانية ترغب ، بهذه السماحة الدينية ، أن توحد تحت سقفها عالمية الإسلام ، والعالمية المسيحية . وبأسلوب آخر ، فإنها كانت ترغب أولاً تحقيقاً كاملاً للتعايش السلمى بين الدين المسيحى والدين الاسلامى ، ويدعمون العالم المتحضر بالسلام العثمانى ، وبهذا الشكل إتضح سبب تفضيل الأتراك للبطريركية الأرثوذكسية ضد الدولة البيزنطية والبابوية .

وفى أوج الدولة البيزنطية ، كان الأباطرة يتدخلون فى شئون البطريركية وكان بعض الأباطرة النساك يتظاهرون أنهم يعرفون أكثر فى شئون البطريركية الدينية وتدخلوا حتى فى أمورها الصغيرة . لكن فى ظل النظام الجديد للدولة العثمانية ، فقد عهد سلاطينها، بدءاً من محمد الثانى ، بكل سلطاتهم المتعلقة بشئون الدين المسيحى للبطاركة .

---

(1) الإثنارخية Ethnarchy نظام أدخله محمد الفاتح بعد إتخاذه القسطنطينية عاصمة لإمبراطوريته والتى عرفت باسم إسطانبول . ويصبح الأسقف إثنارخا بعد أن يمنحه السلطان البراءة ويحصل على هذا المركز بعد أن يظهر الشروط الأساسية ومن بينها الطاعة التامة للدولة .

والإثنارخية وظيفة عرفت فقط فى الدولة العثمانية .. أنظر:

Harry Luke, (Sir). A Portrait and Appreciation. Op. Cit. pp. 78 - 80

ونستطيع القول أنه بلا مبالغة ، أن السلطات المسكونية الممنوحة للبطاركة فى العهد العثمانى أصبحت تفوق بكثير ما كانت ممنوحة فى العصور المجيدة للدولة البيزنطية . فكان محمد الفاتح مهتماً بالإعتراف بالمؤسسة البطريركية ، وقد خصص لها فى الدولة مكانة تسمح لها بممارسة كل نفوذها ، وكان يريد من وراء ذلك أن يطفئ لدى رعاياه الأرثوذكس أية جذوة للوفاق مع خصومه المسيحيين الغربيين ، والتمكن بهذه الطريقة من حل صعوبة رئيسية من المصاعب التى تواجه السيطرة العثمانية فى أوربا ، فقد حبّذ تصعيد رجل دين يونانى مرموق كان قد تميز فى الأعوام السابقة بمعارضته الدؤوبة للإتحاد مع الكنيسة اللاتينية هو جورج سكولاريوس الذى أصبح بطريركاً تحت اسم جيناديوس وقد كفل لهذا الأخير "كافة إمتيازات أسلافه" عاقداً معه إتفاقاً يحدد مبادئ العلاقات بين البطريركية والباب (العالى) [١] .

وفى مجمل القول خلعت على البطريرك صلاحيات شبيهة بصلاحيات بابا روما [٢]. فبسقوط القسطنطينية أصبح قدر المسيحية اليونانية الأرثوذكسية بأيدى العثمانيين ، وكان تصرف محمد الفاتح مقياساً لمدى النقلة الحضارية التى حققها العثمانيون مبتعدين عن تراثهم البدوى [٣] . وبحث السلطان أيضاً مساندة القادة المسيحيين ، فأكد لرجال الدين الأرثوذكس أنهم سوف يمارسون حرياتهم الدينية داخلياً وخارجياً ليضمن عدم الإتحاد مع روما . كما أنه بهذا الأسلوب خلق النظام الملى الشبيه بالحكم الذاتى : للزعماء الدينيين وامتد بعدئذ ليضم الأرمن واليهود والأقليات غير الإسلامية الأخرى الكبرى والرئيسية .

---

[١] روبير مانتران تاريخ الدولة العثمانية جـ١ ترجمة بشير السباعى ؛ مرجع سابق ذكره ص ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

[٢] أحمد عبد الرحيم مصطفى (د) أصول التاريخ العثمانى . القاهرة . ١٩٩٣ ص ٦٧ .

[٣] بول كولز . العثمانيون فى أوربا . ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ (د) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ ص٣٥ .

محمد فريد (بك) تاريخ الدولة العلية العثمانية . بيروت . ١٩٧٧ ص ٦١ .

وفى المقابل وجد القادة المليون أن من صالحهم أن يقفوا بجانب السلطان ، منذ أن صار فى ظل هذا النظام أنهم يتمتعون بسلطات أوسع وأكبر على أتباعهم مما كان عليه الحال فى ظل الدول المسيحية السابقة .

والفتح العثمانى الكامل لجنوب شرق أوربا ، قد وجَّد مرة أخرى معظم المسيحيين فى المنطقة يونان وسلاف على حد سواء تحت سلطة البطريركية الإغريقية ، مما جعل الكنيسة تشعر بمنفعتها من التوسع العثمانى والأكثر من ذلك توحيد مصالح البطريرك والسلطان (١)

(١) Stanford J. Shaw .. History of The Ottoman Empire and Modern Turkey .vol.I London. 1976 . p. 58 .

قائمة المراجع

أولاً : المراجع العربية

١- أحمد عبد الرحيم مصطفى (د) أصول التاريخ العثمانى . القاهرة . ١٩٩٣ .

٢- بول كولز . العثمانيون فى أوربا . ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩٣ .

٣- روبير مانتران . تاريخ الدولة العثمانية . ترجمة بشير السباعى جـ١ القاهرة ١٩٦٣ .

٤- سالم الرشيدى . محمد الفاتح . القاهرة ١٩٥٦ .

٥- عبدالعزيز محمد الشناوى (د) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . جـ١ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤ .

٦- محمد مصطفى صفوت (د) السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية . القاهرة. ١٩٤٨.

٧- محمد فريد (بك) تاريخ الدولة العلية العثمانية . بيروت ١٩٧٧ .

٨- محمود ثابت الشاذلى . المسألة الشرقية : دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩م-١٩٢٣م) القاهرة ١٩٨٩ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

1- Chester M. Tobin . Turkey key to the East . New York . 1950 .

2- Dimitrie , Cantemir, Extracts from the History of the Ottoman Empire, Bucharest . 1973 .

3- Harry Luke, Sir. A Portrait And An Appreciation . Cyprus .London .1957.

4- Harry Luke, The Old Turkey And the New. London .1955 .

5- Kritovoulous, History Of Mehamed The Conqueror . Princeton . 1954 .

6- Robert Liddell .Byzantium And Istanbul . London . 1956 .

7- Sésostris Sidarouss , Les Patriarcats Dans l'Empire Ottoman , Et spécialement En Egypte . Paris 1907 .

8- Stanford J . Shaw. History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol .I . London 1976 .

9- Steven . Ruciman . The Great Church in Captivity . Cambridge . 1968 .

10- Toynbee Arnold J. and Kenneth Kirkwood . Turkey . London . 1926 .

ثالثاً : الدوريات

1- Cultura Turcica , Volumen I , Ankara . 1964 .